وكان باسل، بحكم اقترابه من دائرة الموت، يرى كل ذلك فيخشاه، وفي الوقت ذاته، يستمد الشجاعة منه . وكان يتلفت حواليه فيرى تلك الثنائية ــ المتناقضة تحاصره :

ففي اطار عائلته الكبيرة ، رأى القلق على حياته في جميع العيون . وأصر ــ مع ذلك ــ على ان تراث التضحيات الذي تملكه العائلة سيأتي دوما لعونها ومواساتها اذا ما اقتضت الضرورة تضحيات جديدة .

وفي دائرة العائلة الصغيرة ، حقن زوجته بمصل « الوعد الذي قطعته على نفسها عند زواجهما بمساعدته دوما على اعطاء الاولوية للقضية العامة » ليشكل عندها « المناعة » اللازمة ضد هجمات « فيروس الضعف الانساني » الذي قد يدفعها ــ كأي امرأة تحب زوجها حبا شديدا ــ لتطالبه بالالتفات الى تناقض الخاص بالعام .

واذا ما سئل : وماذا عن أحمد ويعرب وياسر (أطفاله الثلاثة) ؟ يأتي صوته خفيضا، متقطعا ، ومتهدجا وان قاطعا : وماذا عن فايز وليلى (طفلا الشهيد غسان كنفاني) .

واذا قيل له : الحصان الذي تراهن عليه جامح وخطر !

أجاب ــ ومن أقدر على ترويضه منا ؟

* وماذا عن رفاقك المغامرين ؟

ــ لانهم رفاقي ... لا يجوز تركهم وحدهم .

* سيقتلون أنفسهم بروح المغامرة عندهم .

ــ مهمتي ان أمنعهم من قتل أنفسهم . ان أحميهم من مغامرتهم .

* وماذا ان قتلت اثناء ذلك ؟

ــ وماذا اذا قتلوا وانا مقتنع بأنه كان بامكاني ان أمنع ذلك ؟ أليس الموت أهون ؟

* ولكنها مرحلة هزيمة وتراجع . والعمل الوطني أساسه الاقتناع بجدوى العمل وأدواته وليس استحضارا لعنترة بن شداد .

ــ بل لانها مرحلة هزيمة وتراجع ، نحن بحاجة الى نوع خاص من الفروسية . نحن بحاجة الى الفارس العصري الذي يساهم في درء خطر وقوع الجماهير في مستنقع اليأس او يضيف ، على الاقل ، قطرة الى زيت مشعل أملها ... كي لا ينطفىء . يرصف الطريق ، حصوة حصوة ، من أجل أن يمر الموكب القادم . تماما كمن يزرع اليوم ... ويعرف انه لن يأكل غدا . انه ليس تضحية جيل من أجل جيل قادم . انه مجرد هدية متواضعة من أفراد في جيل الى جيل آخر قادم .

وأرفق باسل الكلمة بالفعل . فاعتذر ، بعد ان حسم الثنائية المتناقضة تلك ، عن عرض جاءه من جامعة الجزائر ليدرس في كلية الحقوق والعلوم السياسية فيها بدءا من ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٢ . وهكذا قطع باسل آخر خيوط شبكة « العنكبوت الطبقي » المنسوجة من حوله ومضى ، مرة اخرى جديدة ، معطيا صهوة الجواد الوطني ، فارسا عصريا مقاتلا ، هادفا انتزاع الفجر المضيء ... من رحم الهزيمة المعتم .

وفي التاسع من آذار ــ مارس ١٩٧٣ أوفدت « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » باسلا الى باريس في « مهمة خاصة ». وفي السادس من نيسان ــ ابريل ، وبينما كان باسل عائدا ليلا الى فندقه في العاصمة الافرنسية ، أطلق اثنان من عملاء المخابرات الاسرائيلية النار عليه ، في الظلام ، ومن الخلف . فانزرع في جسده تسع من الرصاصات ــ الاوسمة .

... ولحظة هوى الفارس مجندلا على اسفلت ذلك الشارع الباريسي ... نكست قلاع عديدة أعلامها ... وطأطأت جياد كثيرة رؤوسها . وعندما جاءت سيارة الاسعاف لنقل جثة الفارس ، **سمع الكثيرون شهقة أحد المرضين اذ رأى ، تحت حذاء قدم باسل اليسرى ، بقايا أشلاء أشبه ما تكون بأشلاء ... عنكبوت .**

***

وينتصب السؤال، بعد مضي عام كامل، عملاقا متهقها: أيهما اكثر مرارة: الموت أم طعمه في حلق الصديق؟ وما هم ، الان ، طالما ان الموت ــ الحقيقة المطلقة الاولى ــ قد وقع ... ومرارته ، في حلق من لا زال ينتظر ، متيمة . ذلك انه يصبح ممكنا الغاء الموت في حالة واحدة ... عندما يكون ممكنا للحقيقة ان تغدو وهما . والى ان يحدث ذلك ، سيبقى طعم الموت في حلق الصديق جرحا دائم التفتح... ينز علقما وحنظلا... الى لحظة يجف معها الجرح ... بفعل « مرهم » الموت ... الاتي .